حميد ناصر الجلاوي

الرحلة الصحراوية

ساق (مسعد المشاري) جماله في هداة الليل . كانت الكلاب غافية فلم تنبح ولم تعد تسمع غير خشخشة الاواني المعدنية المكتومة على ظهر الجمل .

كان مسعد المشاري يهمهم مع نفسه ، عيناه غارقتان في سهد الليلة المتعب والقلب يملأه الغيظ ، « اه منك ، ايتها القرى .. آه ! » يصر على اسنانه ويطحن العذاب في داخله ، تمور روحه والاوجاع تتناهشه ، يقول لنفسه :

ـ ايـن هم البدو الان ؟

تنوح ابنته الصغيرة فجاة فيهمس الى زوجته بزئير مكتوم :

ـ اسكتيها والا قطعت زدوميكما بالخنجر !

اختنق صوت الصبية تحت كف امها والقرية نامت خلف ستار ثقيل من الليل . تلفتته الفيافي ولم يعد يسمع غير وقع الخفاف على الارض العارية ووجيب قلبه المعربدفي صدره وضيم الرحلة الاولى الى القرية « .. سويعات واكون في الصحراء ، تطير يا قلب ، ايها الجريح الموجع ، سأدمل جروحك بالرمل ، اسقيك الرمل من صحراء الحزن والشمس تخرج فوق ، فوق ، وتمسح اثار الضنى » .

يسمع مسعد المشاري نباح كلاب ياتي من بعيد فتستيقظ في رأسه لوعة الامس :

« آه منهم ، يأتي الشيخ ويصيح :

ـ يا بدوي ، يا رذيل

اقول له بضراعة :

ـ لماذا يا شيخ ؟

ـ انكب ! يا بدوي يا رذيل ، الجمال تاكل الحنطة وانت تنظر تفرح في نفسك .

ـ يا شيخ ورأسك ، الجمال لا تاكل، اضربها على اعناقها لواكلت.

ـ يا كذاب ، يا وسخ ، يا ابن الزانية ،

ويأخذ الخيزرانة ..»

تتنهد زوجته على ظهر الناقة ، يتنبه لها :

ـ ريم ... يا ريم ؟

ـ ايش تريد ؟

ـ لماذا تتنهدين يا ريم ؟

ـ البنت تبكي .

ـ عندما تطلع الشمس ، سنحط يا ريم ونغسل وجوهنا من التعب وسترعى الجمال .

ـ آ ....ه !

اول خيوط الفجر تمتد ويشعر مسعد المشاري بقدميه تسحقان العاقول والشوك والريح محملة برائحة الفجر الندية والوجوه تحاصر مسعد المشاري :

« يأتيه في العشية فافضل المحسن، يحط الرحال عنده، يشربان القهوة يقول له فاضل المحسن :

ـ يا مسعد المشاري كم مضى من الزمان وانت تطوف فيافي الصحراء تطوي الرمل وتطوي القفراء .

يجس مسعد المشاري باطن قدمه باصابعه الصلدة كالعصى ويضحك :

ـ لقد امضيت عمري يا فاضل المحسن بهذا التطواف .

ـ وكم من الآلام اورثتك الدنيا ؟

تغيم عيناه بالضنى :

ـ اورثتني البلاء ، البلاء يا اخي ، في رأسي الشقوق وعجرات العصي وحزن العتابا والنايل والسويحلي ،...وانت يا فاضل المحسن كم من الخيزرانات لعبت على ظهرك !

ـ الخيزرانات لوحدها ؟

ضحك فاضل المحسن ، وصمتا كلاهما ، وزوجة مسعد المشاري تطحن بالرحى وراء الستارة وتدندن مع نفسها .

ـ الخيزرانات !؟اترى وجنتي ؟

ـ ارى العظام » .

تطلع خيوط الشمس ويرى مسعد المشاري ساق ابنته الصغيرة يتدلى من حضن امها ، يصيح :

ـ ريم ! ستسقط البنت على الارض وتموت .

ويصيح بالجمال صيحة البدو الوحشية :

ـ دو .. و .. وو .. دو .. و .. وو

ترفع الجمال اعناقها ويهدأ المسير ، وتتناغم ضربات الخفاف على الارض اللدنة وتترامى الصحراء من بعيد كالبحر الكبير .

يتوهج وجه مسعد المشاري كالجمرة ، يتوهج مع امتداد الصحراء وريح الصحراء ، والجمال تشرئب باعناقها وتمتد كأغصان الدفلى المتدلية فوق الجداول . تنبسط روح مسعد المشاري والوجوه الاليفة تقترب، تمد الصبية راسها من الهودج ، تصيح :

ـ ابـي

ووجه فاضل المحسن يواجهه ، يبتسمان ويقدح الفرح في العيون:
« آه .. يا اخي مسعد ، لا تروح !! بع الجمال في السوق وشيد لك كوخا قرب كوخي .

جرحك يا مسعد مثل جرحي ، تقيم معنا وتأخذ لك ارضا من هذا الشيخ اللئيم ، تحرثها وتزرع ولا صحراء تتلفك بعد هذا » يشعر وكان فاضل المحسن يرميه بكلامه هذا في غيهب مظلم ، تضطرب روحه، يحدثها :

ـ كيف تعيش يا مسعد المشاري بلا صحراء ، بلا رمل ، بلا جمال ترعى في العشية ؟

اتعيش بلا حداء ولا عتابا ولا تأخذ الريح صوتك النابض بالسويحلي والنايل ، ويأتيك الشيخ بالخيزرانة ، يدخل كوخك عنوة ويجلد ريم بالخيزرانة ، فتشهق روحك كالباشق ، عاليا ، عاليا ، وتسقط صريعة على الارض ؟

يمتد صوت مسعد المشاري مع الصحراء ودفء الشمس يتغلغل في ظلوعه .

(خطف ريم الحمادة ترف
جفلان
مضمر مشد السيف
جفلان
ركض مد الفراش وقال
جفلان)

تقف ناقة ريم ، وتبرك ، تترك الهودج وتشد العباءة الى وسطها وتضع ابنتها على كتفها ، يسحقان الرمل معا ، يقول لها بفرح:

ـ لقد غابت القرية !

ـ ليس غير وجع الصحراء يا مسعد

ـ تتوحين كلما وجهت وجهي الى بلاد الله الواسعة وروحك تزوغ يا ريم ، الا تشمين رائحة الرمل العبق بخفاف الجمال والريح العذبة ، آه يا ريم ، الريح العذبة ، لو تركضين ؟

اركضي مع الصحراء حتى تنقطع انفاسك ، الثياب تنهشها الريح والشمس ملء العين، والعيون المنحوسة تغيب من امامك ، تركضين مثل الجمل ، تطوين الرمل ، تطوين السجادة الناعمة كالروح وكوجيب القلب في الصدر ،

ثم يطلق صوته :

(ترف لون تشتم ابو ... يه ـ
مزعل انسي
دحم ، ذيب الحماده ـ
مزعلاني
ترف ....)

والزوجة تنظر للبلعوم المزرد المتناغم مع الغناء والدم النازل الى الوجه المكدوم بالالم . يسكت مسعد المشاري ، يأتيه هاجس فاضل المحسن :

« تروح الى المدينة والناس مثلنا ، يذلهم التجار ، يبلع العامل ريقه فيقول له رب عمله :

ـ لا تبلع ريقك ، لا تبلعه ، انت تريد خسارتي وخراب بيتي .

ويقطع الدرهم والدرهمين من اجرته ، والناس في المدينة يضعون اصابعهم في عيون التجار والتجار يهرعون الى الشرطة .

تبني كوخك يا مسعد ، وتروح للمدينة ، تروح للمدينة وتشتم رائحة الناس وتأتي روحك تفور من الغيظ وفي كوخك تفور روحك من الشيخ » .

الهاجس يذكره بالشيخ ، اخذه الجلاوزة الى المضيف وربطوه الى الدلق ، قال له الشيخ :

ـ يا بدوي يا نذل ، تسرق للفلاحين الحنطة ؟ رق قلبك على صبيانهم ؟

وصاح على عبديه :

ـ يا عوين .. يا ضيف ، انزعا عقاله وكوفيته وارفعا ثوبه من اسفل على ظهره واديراه نحو الباب ؟ مضغت ذلتك ، ثم لعبت الخيزرانة ، وصوت فاضل المحسن يهدر .

ـ ثلاثة ايام بلياليها ، ابيت في الزريبة ، رائحة الروث والسرفين وخوار البقر والعجول، والبرد اللاذع والريح وصوت طقطقة الترابيس، كنت انظر ، النجوم يا اخي يا مسعد ، النجوم في السماء السابعة واسمع ضحكات الحراس ونباح الكلاب المبحوح ويأخذوني الى الخلاء ويضربوني ، يتفلون على وجهي ويشمتون بجرحي .

ـ يا مسعد يا بدوي انت يربوع ، يضحك عليك فاضل المحسن ، يدس انفك في الوحل ، يدمسك في العار يا مسكين .

ووجه فاضل ينسع ، يتسع ، يرى مسعد الكدمات والتقاطيع المسفوعة بالشمس في حفرة خالية الا من وجهه والرمل السافي كالرمد في العين ، الوجه محروث بالمحنة ، الايام ، الليالي ، والرمل المعربد والشمس تصهد ، تضرب الرأس ، تدخل في اعماق الروح ، الحفرة الهابطة وسط الصحراء ، عندها تبدأ حدود السماء ، دروب تروح الى (نجد) ، دروب الصخر والذئاب الجائعة ونواح الريح ودروب الى (بصية) ، والجدران عالية ، عالية تنطح السماء والصخور صلدة كقلب الشيخ والتجار .

فاضل المحسن يكبر ، يكبر ، يكبر ، افياؤه تمتد فوق رأس مسعد المشاري وفوق رأس الزوجة الراكضة خلف الجمال وفوق الرمل والهودج والصبية النائمة ورغاء الجمال ، صوته يملأ البرية وهو يحكي:

(تتخشب الاصابع على عمود المسحاة والاقدام العارية مثل سكين المحراث والقلب ينوء بالضيم والروح تمتد مثل النبتة يجثم عليها حجر فاس ، يعطوننا الريح والرماد ونعطيهم القمح نتخم افواههم بالحنطة، الحنطة اللامعة كالذهب ، والرماد يسفي في العيون ،ذات ليلة رحت الى الزرع اسقيه والليلة برد والصقيع يهبط على الروح ، يهبط على الجسد العاري والماء يندفع ، المسحاة لا تقدر صد الماء المندفع ، اضع ساقي في الماء ، احمل الطين بين يدي المتخشبتين القاسيتين كالصوان، اضع الطين وافيم السد والبرد يهبط الى العظم ، يهدني التعب ، انقلب على جرف الجدول وانام والديدان القارصة الخارجة من ثقوبها تنهش والنوم يجثم علي كالصخرة .

اروح له واقول :

ـ انا تعبت يا شيخ

يتفل على وجهي ويعطيني الضيم ، يقول لي ، يصرخ بي :

ـ اشكر ربك يا دابة ، لو شئت ارسلتك الى الشرطة وستروح في غياهب مظلمة .

ـ اريد لاطفالي الخبز

وتأتي الشرطة ....)

الجرح الكبير ينفغر في روح مسعد المشاري ، اقدامه الحافية يلسعها الرمل وريم تتوقف تهدها نار الصحراء تقول له :

ـ انقطع قلبي

ـ يوقف الجمل ويرفعها الى الهودج ، تكركر ، واصابعه تضغط على البطن الناعم تحت الثوب والعباءة

يبتسم مسعد المشاري « آه ، هذه البنية الحلوة ، الناقة الصغيرة ، عيونها سود والعنق طويل ، سمتها امها ريم ، اروح معها نرعى الجمال ، ننام تحت الصبير ، والصبير يعبق ، والفم الحلو كحليب الناقة احلبه بالفم ، تركض وانا اركض ، اضعها بين ساعدي كالغزالة الصغيرة ، قلبها يلبط في الصدر يرتعد والريم ساكنة في حضني كالحمل الوديع »

تبكي الصبية ، تقول لها ريم

ـ لا تبكي يا بنيتي لا تبكي ، ساعة ونصل مضارب البدو .

وصوت مسعد يجلجل بالعتابا :

نرف ، ندري بحالـي شلـون

ماجـور

استوى الدلال واطراف الحشا

ماجـور

والشمس تميل الى الغروب وافدام مسعد المشاري يهدها التعب، يمد بصره مع الصحراء، تصيح ريم فجأة :

ـ مسعـد !

يستيقظ من خيالاته ويأخذ البندقية من قرابها ،يطق النرباس.

الرجل يتحرك على الرمل ، يترنح ثم ينكفيء على وجهه ، ينهال مع الرمل من اعلى الكثب والكلاب تنطلق ، تسبق الجمال مالئة الريح بالنباح ، تقف الجمال والهودج يهتز تحت ريم وابنتها والكلاب تحيط بالرجل المتحامل على نفسه ، يقوم والريح تلعب بثيابه ، يهش الكلاب بذراعيه ، يطوح بهمـا ثم ينكفيء على وجهه ، يراه مسعد المشاري عن بعد ويتوجس خيفة ، يحرك اقدامه ، تصيح ريم مرعوبة :

ـ لا تذهب ، لا تذهب

يقول مع نفسه « ربمـا هـو المهرب يا مسعد ؟ المهربـون ينصبون الكمين ، ربمـا دفعوه ليلاقيك ، سنحمله ويهجمون عليك ، يذبحونك وياخذون الجمال وريم الحاوة ـ يذبحونك ويرمونك للرمل والريـــح والذئاب الصحراويـة .

تصيح ريـم :

لا تروح .. يا مسعـد .

الكلاب تحيط بالرجل باصواتها المتخشبة .. يسألها مسعد :

ـ اترين احدا وراء الكثب يا ريم ؟

ـ لا ارى ..

ـ سأذهب اليه ، اذهب اليه،الكلاب تنهشه والعطش يمتص روحه.

ـ املأ البندقية واذهب اليـه .

« آه منهم ، المهربين الغدارين ، يضعون سكاكينهم في زناديم البدو وياخذون الجمال ..»

تقترب خطواته من الرجل والكلاب تكف عن النباح ، ينن الرجل:

ـ جرعة ماء .. ما.....ء

ـ الا تقوم ؟

يقوم الرجل ، تعتدل قامته ، يجاهد ليقف ويرفع راسه ، يـرى مسعد العينين المتعبتيـن والشفتين اليابستين ولفح الصحراء ، ينكفيء الرجل على وجهه ويغمس ذراعيه في الرمل .

ـ مـا .....ء

يصيح مسعد بمرارة :

ـ الماء ... اتيني بالقربة يا ريـم .

قلبه يتفطر كالزجاجة ، ينشعب دفعة واحدة ، يقول لنفسه :

« من اين اتي هذا الفتى ؟ والذئاب ! يا الهي ، الذئاب الجائعـة الف فرسخ وتشم رائحـة الطريدة ، تجوب الصحراء كالمهربين تـروح وتجيء ... »

خطوات ريم تسحق الرمل ، تعطيه القربة ، يقول لها :

ـ الفتى يموت

تاخذ ريم البندقية وتصوب نحو الفتى ، يقول لها مسعد :

ـ هذه دنيا يا ريم ، صوبي اليه .

يرفع مسعد راس الفتى ، يطرحه على قفاه ويسكب قطرات الماء في البلعـوم .

ـ اشرب يا فتاي ، على مهل ، دعني اقطر الماء في بلعومك اليابس.

تصوصي عينا الفتى رويدا ، يفتحهمـا كفلقتي النبتة الصغيرة ، يغمضهما ثم يحدق بوجه مسعد،يحدق ووجهه كالطير الجريح،يبتسم:

ـ الى اين تروح ؟

يكفهر وجه الفتى ويغمض عينيه وخطوات تقترب منهمـا

ـ الا نستطيع ان تقوم ؟

يهز الفتى رأسه ويتحامل ، يجر قدميه ، يضع مسعـد المشاري ذراعه تحت ابطيـه ويسنده الى صدره ، يسمع وجيب قلبه الواهن .

ـ هآ ... عرفـت !

يمتقع وجه الفتى وينسحب الدم وتيبس الشفة ، يسمع مسعد صوت فاضل المحسن « وسط الصحراء ، لا شيء غير سمـاء اللـه المتوغلـة في الاعالي ، مرة يحالفك التوفيق وترى ضيرا يعبر الصحراء، يعبرهـا الى نجد ، او الى الفرات ، تسمع ذئـاب الصحراء وخبط بساطيل الشرطة وترى النجوم في الليل تنبض واضواء المصابيح الكابية.. ونحـن عمار الارض ، نقضي الليـل ، الصبح ، النهار ، وسط الجدران السامقـة » .

ـ الى اين تروح يا فتى ؟

ـ .....

حل الليل والفتى ينام في الهودج وريم تحمل ابنتها على كتفهـا يقول لها مسعـد :

ـ الفتى هارب !

ـ الى أيـن ؟

ـ الى اهلـه

ـ حل الليل يا مسعد ووادي الحنين امامنـا ، ساعـات ونعبـر وادي الحنيـن .

يصيح مسعد :

ـ الى اين تروح يا فتى ؟ قريتك على الفرات ؟ تقول له ريم :

ـ امه تنام على الجمر يا مسعد ، تجلس الام على عتبة الباب ،آه يا مسعد على قلب امه المتقوع بالالـم ؟

ـ سنروح معنا الى مضارب البدو ، ساخذك الى الواحات يا فتى!

يسمع مسعد انين الفتى ، يوقف الجمل وينزله عن الهودج ، يفتش جسده المنهوك ، الاقدام المتشققة .

يمسح الخاصرة ويرطب الشفتين بالماء ، يقول مع نفسه :

(يا فتاي ، الالـم يملأ خاصرتك وروحك كالصخرة ، الروح الصلدة تدفعك عبر الصحـراء) .

صوت فاضل المحسن يندفع في البرية :

(ـ الى الشمس .. الشمس ودفء الظهيرة والقمح كلون الذهب)

يقول للفتـى :

ـ سنروح الى البرية والواحات واروح واياك الى الفرات الـى قريتـــك !

تغيم عينا الفتى ، تاخذه اغفاءة وضربات قلبه تتلاحق ، يرفعه مسعـد المشاري الى الهودج ثانيـة .

تصيح ريم مذعورة :

ـ وادي الحنين .. وادي الحنين !

الحفرة العميقة الضاربة في عمق الارض ، المظلمة الممتدة بيـن الكثبان . تأخذ ريم قدر النحاس وتضربه بالقضيب ،

(رن .. رن .. ن .. ن .. د .. ننن)

في هذا الوادي كمن اللصوص والناقة الحنونة في البرية ، جـاء الفصيل فاحتوشوه في الوادي ، ركض المسكين ، تعب ، خفافـه الصغيرة كلت ، امسكوه وعملوا فيه الخناجر ، ناحت الناقـــة على وليدهـا ، ناحت معهـا البرية والريح ، ظلت تجوب الصحراء تدعو وليدها وظل صوتها يملأ الوادي بالحنين والحزن والنوق تبـرك في الوادي لو سمعت الصوت المفجوع .

رفعت الجمال اعناقها وهي تعبر الوادي والرنين يغطي الغـروب ومسعد يتفجع على الفصيل المذبوح في اعماقه .

الجمال في البرية ومسعد يسمع انين الفتى المتعب والدرب يؤدي الى الفرات ومع سكون المساء يمتد صوته بالعتابا .

(لون ندري بحالـي شلـون

ماجور ...)

العراق ـ واسط